

صور التناسب البلاغي في القرآن الكريم: بحث في أسرار الاقتران الدلالي من خلال تفسير (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للإمام البقاعي.

Pictures of rhetorical proportionality in the Noble Qur'an: A study of the secrets of semantic association through the interpretation of (Nazm al-Durar in the proportionality of verses and surahs by Imam al- Baq'i.

عثمان بريحة

o.berriha@crstdla.dz

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية (CRSTDLA) / الجزائر

تاريخ النشر: 2022/01/23

تاريخ القبول: 2021/11/26

تاريخ الاستلام: 2021/10/31

ABSTRACT:

ملخص البحث

the most important issues related to the Noble Qur'an are the issue of its arrangement and proportionality. Countless interpretations of the Noble Qur'an have proven over the long Islamic centuries the subject of the Qur'anic unity.

Accordingly, this research paper comes to highlight the images of rhetorical proportionality in the Noble Qur'anic text and the secrets of the semantic coupling between its parts through the interpretation of (Nazm Al-Durar) by Imam Al-Baq'i, and it reveals the mechanisms he followed in his work and the foundations on which his work was based in order to show the faces of proportionality between the parts of the Quranic text Karim

Keywords: text, Quran, proportionality, rhetoric, surah, verse, significance.

لا حَرَمَ أن أهم المسائل المتعلقة بالقرآن الكريم مسألة ترتيبه وتناسبه، وقد أثبتت تفاسير للقرآن الكريم لا تُحصى عبر القرون الإسلامية الطويلة موضوع الوحدة القرآنية. ذلكم وقد حظي التناسب البلاغي بين آيات الذكر الحكيم وسوره بعناية علماء البلاغة بل غدا عند بعضهم سرا من أسرار البلاغة الذي تعرف به علل ترتيب أجزاء القرآن.

وعليه تأتي هذه الورقة البحثية كي تبرز صور التناسب البلاغي في النص القرآني الكريم وأسرار الاقتران الدلالي بين أجزائه من خلال تفسير (نظم الدرر) للإمام البقاعي، و تكشف عن الآليات التي انتهجها في عمله والأسس التي أسَّ عليها عمله حتى يبين وجوه التناسب بين أجزاء النص القرآني الكريم، كل ذلك بانتهاج النهج البياني الذي يبرز بلاغة الاقتران الحاصل بين تلك الأجزاء.

الكلمات المفتاحية: نص ، قرآن، تناسب، بلاغة، سورة، آية، دلالة.

مقدمة:

من المعلوم أن القرآن قد نزل مفردا ثم رُتب على نحو مخالف لترتيب النزول، وهذا بحد ذاته دليل على أن ترتيب القرآن توقيفي. وكان من الممكن مثلا أن ينزل القرآن مفردا، آية أو آيات من سورة إلى أن تنتهي السورة، ثم سورة أخرى على دفعات تسير الأحداث والوقائع وحاجات الناس، ويتم ترتيب كل ذلك أولا بأول، وكان جبريل عليه السلام ينزل بالآية أو الآيات من السورة، وقد ينزل بعد ذلك بسورة كاملة، تاركا سورة غير مكتملة، ثم بعدد من الآيات تلحق بسورة سابقة، يحدد جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم موقع الآيات في تلك السورة. من الواضح أن الطريقة التي كان ينزل القرآن فيها تدل على وجود ترتيب مسبق محدد للقرآن يتم نقله وتشكيله بالتدرج، مختلف تماما عن ترتيب النزول. ولا بد أن يكون وراء ذلك حكمة ما، لم يكن أحد يعلم ما شكل هذا الترتيب الذي سيكون عليه القرآن في النهاية.

والمناسبة في اللغة تعني: «المشكلة والمقاربة، والمناسب القريب، وهذا يناسب هذا، يقاربه شيئا، ومنه النسب الذي هو القريب المتصل»¹.

أما ما اصطلح عليه بالمناسبة لدى العلماء فيمكن تتبعه لدى علماء القرآن والمفسرين على هذا النحو:

- أبو بكر بن العربي: يقول في المناسبة: «ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، أنا لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه»².

- الإمام البقاعي: عرفها بقوله: «فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال»³.

- جلال السيوطي: يقول: «ومرجعها في الآيات ونحوها إلى رابط بينها عاما أو خاصا، عقليا أو حسيا أو خياليا أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالعلة والمعلول والنظيرين الضدين ونحوه»⁴.

- د. مصطفى مسلم: يقول: «هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها»⁵.

إذا فالتناسب أو علم المناسبة هو علم يعنى بالكشف عن الترابط اللفظي والمعنوي بين أي وسور الذكر الحكيم. مما يبين أن أن القرآن الكريم يشكل وحدة نسقية، فهو بناء فكري ولغوي متكامل وشامل ومستقل بذاته. وقد انتبه المفسرون وعلماء القرآن إلى ذلك، وعملوا على أعمال هذه الأداة التفسيرية لاستنباط مراد الله تعالى من الخطاب القرآني. وما المصدر الأول من مصادر التفسير المتمثل في تفسير القرآن بالقرآن إلا دليل على إدراكهم لهذه الوحدة النسقية، ذلك أن

القرآن الكريم لا يمكن فهمه باجتزاء النص القرآني عن سياقه اللغوي ، بل لا بد من استحضار ما قبل النص و ما بعده إذا أردنا أن ندرك مراد الله تعالى من الخطاب القرآني بطريقة علمية وموضوعية . فالقرآن الكريم لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الكلي.

1. التناسب البلاغي بين الآيات:

من العلاقات الدلالية الأكثر ترددا في نص القرآن الكريم الالتفات، وهو من فنون القول التي لاقت عناية لدى البلغاء وعلماء التفسير؛ لأنه ينقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب ومن صيغة إلى صيغة ومن خطاب إلى آخر، وكما ذكر علماؤنا الأجلاء أن له فوائد كتطرية الكلام، وتفادي السأمة والممل كون النفوس جبلت على حب التنقل بين واد من القول إلى آخر، والزركشي يتحدث عن فوائد الالتفات العامة والخاصة بقوله: «اعلم أن للالتفات فوائد عامة وخاصة، فمن العامة التفتن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلك من تنشيط السامع واستجلاب مجاري الكلام وتسهيل للوزن والقافية شعرا ونثرا» ، ولا تقتصر مهمة الالتفات على ما ذكره الزركشي بل له فوائد خاصة كما أشار في نصه تقع من مسائل النص موقعا حسنا إذ تشير إلى وظيفة الالتفات في حبك النص وضمه إلى بعض.

ويشير البقاعي إلى الالتفات ووظيفته في مواضع كثيرة من تفسيره، ففي (أم القرآن) ينبه الإمام على الالتفات بقوله: «فلما استجمع الأمر استحقاقا وتحببا وترغيبا وترهيبا كان من شأن كل ذي لب الإقبال إليه وقصر الهمم عليه فقال عادلا عن أسلوب الغيبة إلى الخطاب لهذا مقدا للوسيلة على طلب الحاجة لأنه أجدر بالإجابة: ﴿إِيَّاكَ﴾...، وأعقبه بقوله مكررا للضمير حثا على المبالغة في طلب العون ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى أن عبادته لا تهياً إلا بمعونته وإلى أن ملاك الهداية بيديه» ، فكان غرض الالتفات هو الحث على المبالغة في طلب العون، وتم الربط بين الآيتين على أساس هذا الغرض، فتحقق انسجام النص.

ومن الالتفات ما يجيء لصرف الكلام إلى مقام العظمة تقبيحا لمن خالف وأقام على الكفر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتكم بأية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ (الروم: 58)، وذلك بعد قوله عز وجل: ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ (الروم: 57)، إذ لما تقدم قول أهل العلم والإيمان بلبوث من خالف في كتاب الله إلى يوم البعث، وأظهر صدقهم يوم القيامة وصدق قولهم في الحياة الدنيا إذ قالوا وكذبهم الناس، فالיום يقولون ولا يقدرين على تكذيبهم وإنكاره، ثم أتبعه الإشارة إلى عدم نفع الذين ظلموا معذرتهم أو أن يطلب منهم ظاهرا أو باطنا بتلويح أو بتصريح أن يزيلوا ما وقعوا فيه مما يوجب العتب، قال تعالى: ﴿ولقد ضربنا الأمثال﴾ فذكر ذلك «صارفا الكلام إلى مقام العظمة تقبيحا لمخالفتهم لما يأتي من قبله وترهيبا من الأخذ مؤكدا لأنهم ينكرون أن يكون في القرآن دلالة، ومن أقر منهم مع الكفر فكفره قائم مقام إنكاره»⁶.

فالالتفات كما بينت الأمثلة السابقة أحد وسائل الربط الدلالي بين الآية والآية وتجاوز الجملة الواحدة، وهو كثير في القرآن كما ذكر أهل البلاغة وأئمة التفسير على افتراض أن هنالك جهة جامعة تجمع أي السورة الواحدة، ولم يخف على البقاعي دور ذلك في حيك النص وضمه إلى بعض.

من بعد الالتفات هنالك رابط دلالي آخر هو التعليل، وإسهامه في تظافر النص أنه يصل العلة بالمعلول في الكلام، ومن هنا تتم فائدة ربط أجزائه واتصالها ببعض، والتعليل واقع كثيرا في القرآن وفي مواضع متعددة، فمن التعليل ما أورده البقاعي في تفسيره للآيتين التاليتين من سورة (آل عمران) وذلك في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: 18) وذلك بعد قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: 17)، فبعد أن ذكر الله شهادته بالوحدانية لذاته المقدسة وعطف بمن يعتد به من خلقه كالملائكة وأولي العلم الذين عرفوه بالأدلة القاطعة، ففعلوا ما فعل العظيم من الشهادة ليكون ذلك أدعى لمن هو دونهم وأحث، ثم ذكر قسطه وعزته وحكمته التي هي دليل على عدله، جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ليصل العلة بمعلولها، يقول البقاعي: «ولما كان ذلك علم أنه يجب أن تخضع له الرقاب ويخلص له التوحيد جميع الألباب وذلك هو الإسلام فقال معللا للشهادة منهم بالعدل وقراءة الكسائي بالفتح أظهر في التعليل: ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ وأصله الجزاء، أطلق هنا على الشريعة لأنها مسببه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الملك الذي له الأمر كله ﴿الْإِسْلَامُ﴾ فاللام للعهد في هذه الشهادة فإنها أس لكل طاعة، فلأجل أن الدين عنده هذا شهدوا له هذه الشهادة المقتضية لنهاية الإذعان»⁷.

والأربطة الدلالية التي وصل البقاعي إلى تحديدها جمة ويضيق المقام بحصرها، ففضلا عن الالتفات والتعليل توجد روابط أخر مثل العطف الذي سبق الحديث عنه في العلاقات النحوية، والعطف لا تقتصر وظيفته على إشراك التركيب الحالي مع سابقه في الحكم، إنما هو علاقة توسع في الفقرة وله وظيفة تسمح وفقا لقانون الاتساع أن تكون علاقات جديدة: جملة أو عبارة أو مفردة، حيث يلتفت إلى ارتباطه بالعناصر السابقة⁸.

فمن العطف ما يكون على أساس التعجب، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنَابِ﴾ (الرعد: 27)، وذلك بعد قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (الرعد: 26) ذلك أن الله لما ذكر فرح الكفار بما آتاهم الله واطمئنأهم للدنيا، وبسطه الرزق لهم حتى بطروا وكفروا وفرحوا بالحياة وركنوا إليها، أرشد إلى أن هذا المتاع متاع زائل وحقير متلاش، وقد مضى قبل الحديث عن المتذكرين الذين أنجاهم الله من العذاب وأحسن عاقبتهم، ولما كان العقل من أعظم الأدلة وهو مقصور عليهم، إشارة منه إلى أن عداهم بقر سارحة، وعرف أن ما

دعا إليه الشرع هو الصلاح وأن ضده هو الفساد، ومن شأن العقل أن يميز الصلاح فيتبعه والفساد فيجتنبه، والكفار حين كانوا طالبين لإنزال آية لا سيما بعد أن اتهم الآيات البينة والدلالات الظاهرة أضحوا موضعاً أن يعجب منهم أتى قوله تعالى على سبيل التعجيب عطف على قوله: ﴿وفرخوا﴾⁹.
 والتفصيل هو الآخر رابط دلالي يسهم في حيك النص، وأمثله كثيرة في القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون﴾ (الرعد: 04)، وذلك بعد قول المولى سبحانه: ﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الرعد: 03)، فبعد أن ذكر الله آيات السماوات ثنى بها آيات الأرض، وبدأها بمدّ الأرض وجعل الرواسي من الجبال ثابتة باقية، ثم ذكر الأنهار وما ينشأ عن مياهها من الثمرات وما ينضجها من حرّ وبرد بتعاقب الليل والنهار، وختم بالحث على التفكير في كل ذلك والتنقيب عن مسببها للوصول إلى الصانع القدير والمدير الحكيم، ثم لما كان ما ذكر في هذه الآية دليلاً على إحكام الصنعة وعظيم القدرة والتدبير مع وضوحه يعتريه بعض الغموض، شرع في تفصيل ما في الأرض من الآيات التي هي أبين من ذلك دليلاً ظاهراً جداً فأنت الآية الموالية لهذا الغرض¹⁰.

والسببية من أكثر الروابط الدلالية وروداً في القرآن فانظر إلى قوله تعالى: ﴿فلنقصنّ عنهم بعلمٍ وما كنا غائبين﴾ (الأعراف: 07) وذلك بعد قوله: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ (الأعراف: 04) وذلك أن الله حين ذكر هلاك القرى واعتراف أهلها بظلمهم، فظنوا أن الأمر قد انقضى بما عذبوا به في الدنيا كان ذلك سبباً في التوجه إليهم على جهة التوبيخ والتقريع للعصاة وعلى جهة التعظيم والتشريف للمطيعين هل امثلوا الأوامر وأحجموا عن الزواجر كما أمرتهم الرسل أم لا، ولما كان السؤال قد يفهم خفاء المسؤول عنه على السائل، سبب عن ذلك ما يزيل هذا الفهم بقوله مؤذناً بأنه أعلم من المسؤولين عما سألهم عنه: ﴿فلنقصنّ عنهم بعلمٍ﴾¹¹.

وقد يكون التفسير هو وجه الصلة والتناسب بين الآيات كما في قوله تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾ (الأعراف: 41) بعد قوله: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين﴾ (الأعراف: 40) وذلك أنه لما ذكر جزاء من كذب بآيات الله واستكبر عنها وأنه لا يقبل منهم دعاء ولا يصعد عملهم ولا تنزل عليهم البركات فلا يدخلون الجنة التي هي أظهر المنازل وأشرفها حتى يجوز الجمل على كبره في خرق الإبرة....، ولما كان هذه جزاء المكذبين المستكبرين أخبر في آخر الآية أنه لمطلق القاطعين أيضاً فقال: ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾، ثم فسر جزاء الكل فقال: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ (الآية)¹².

وأخرما نسوقه من الروابط الدلالية بين الآية والآية رابط الإضراب، وقد ألاح إليه الشيخ في تفسير قوله تعالى من سورة الفتح: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً﴾ (الفتح: 11)، وذلك بعد قوله: ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ (الفتح: 10)، فبعد أن ذكر الله أهل بيعة الرضوان أتبعه الحديث عن أبطأ عن تلك العمرة من المنافقين والأعراب، الذين التمسوا العذر في أموالهم وأهلهم إن هم تركوها ضاعت، وسببوا عن هذا قولهم للرسول -صلى الله عليه وسلم-: ﴿فاستغفر﴾ لنا من الله إن كنا أخطأنا أو قصرنا، ولما تبين كذبهم وظنوا أنه يخفى على الله -عز وجل- «أتبعه الإضراب عن مضمون كلامهم»¹³ فقال: ﴿بل﴾ أي ليس تخلفكم لما أخبرتكم به من الاشتغال بالأهل والأموال.

هذه هي بعض وسائل ارتباط الآية وانسجامها مع أختها من أي القرآن الكريم، وسائل موجودة في النص القرآني مما يترتب عنه التوجه إلى مستوى أعلى من ربط الآية بالآية، وهو مستوى ربط الفقرة بالفقرة في نص السورة المفردة على اعتبار أن الفقرة هي مجموعة آيات بينها رابط دلالي، وينبغي القول إن البقاعي لم ينص على ذلك في تفسيره إلا في إشارة خاطفة تم إيرادها سلفاً في قوله: «وتفصيل القرآن إلى سور وآيات؛ لأن الشيء إذا كان جنساً وجعلت له أنواع واشتملت أنواعه على أصناف كان أحسن وأفخم لشأنه وأنبّل ولا سيما إذا تلاحت الأشكال بغرابة الانتظام، وتجاوبت النظائر بحسن الالتيام»¹⁴، وإنما الأمر أن عمله اعتمد على ثنائيتين: الأولى هي تقسيم النص إلى أجزاء وإظهار مفاصله، والثانية هي تحليل النص والكشف عن العلاقات الداخلية التي تربط هاته الأجزاء. وهذه الثنائية الموجودة في ذهن البقاعي وهو يمارس التفسير تعني أنه كان يتصور النص القرآني أقساماً مرتبطة بطريقة مقصودة، ويجب أن ننبه إلى أن هذا التصور حتى وإن غاب التنصيص عليه إلا في ذلك النص اللافت لا يعني عدم وجوده.

2. التناسب البلاغي بين السور:

لم تقدم تفاسير القرآن - على كثرتها - نظرية واضحة المعالم خاصّةً بوحدة النص القرآني، فأغلب المحاولات التي تمّت بهذا الشأن كانت قد عالجت المسألة ضمن الفهم الذي قدّمه علماء الأصول من أن الشارع الحكيم هو الذي جعل تلك الوحدة مسلمة بقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء: 82)، وكما ذهب إلى ذلك الشاطبي في (الموافقات) أن الآية تنفي «أن يقع فيه الاختلاف البتة»¹⁵، وكنتيجة لذلك تضاعف حجم الجانب النظري أمام الممارسات التطبيقية التي بيّنت إدراك علمائنا الأجلاء للتحليل النصي على نحو يشبه كثيراً التحليل المعاصر.

والبقاعي هو الآخر بحث في العلاقات المؤسسة للترتيب على مستوى النص القرآني ؛ إذ إن الدائرة السورية تتصل فيها الأجزاء ويدفع كل جزء منها باتجاه الذي يليه، والنظر إلى ما قدمه الإمام في إمكانه أن يحصي تلك العلاقات التناسبية بين السور القرآنية، لكن المقام لا يتسع لذكرها كاملة لذلك كان اختيار بعضها لازماً وإن سيقى على نحو موجز، فإن فيما يأتي من الجزء التطبيقي سيكون -بحول الله- شفاء للغليل.

أولى العلاقات الدلالية التي نسوقها هي (الإجمال والتفصيل) وتبرير البدء بهذه العلاقة أن (الفاتحة) أو (أم القرآن) اشتملت على دلالات ومعان فصلتها سور القرآن مجتمعة، لكن لنرى تناسبها مع تاليها في الترتيب (البقرة) وفق هذه العلاقة وهو من ألطف المناسبات في القرآن الكريم، وذلك أن الله تعالى لما أخبر في (أم الكتاب) أن عباده الصالحين المخلصين سألوه الهداية ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الفاتحة: 06) أرشدتهم في أول (البقرة) إلى أن الهدى المسؤول عنه إنما هو في هذا الكتاب ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ (البقرة: 01-03)، وانظر كيف دل الإمام على تناسب السورتين بقوله: « وأما مناسبة ما بعد ذلك للفاتحة فهو أنه لما أخبر سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم الذي هو غير طريق الهالكين أرشدتهم في أول التي تليها إلى أن الهدى المسؤول إنما هو في هذا الكتاب، وبين لهم صفات الفريقين الممنوحين بالهداية حثاً على التخلق بها والممنوعين منها زجراً عن قربها. فكان ذلك من أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة؛ لأنها سيقى لنفي الريب عن هذا الكتاب ولأنه هدى للمتقين، ولوصف المتقين وما يجازون به بما في الآيات الثلاث ولوصف الكافرين الذي لا يؤمنون لما وقع من الختم على حواسهم والحثم لعقابهم ليعلم أن ما اتصف به المتقون هو الصراط المستقيم فيلزم وما اتصف به من عداهم هو طريق الهالكين فيترك»¹⁶، ويأتي في موضع آخر بحديث يعضد به ما تقدم هذا نصه: « وتصنيف الناس آخر الفاتحة ثلاثة أصناف: مهتدين ومعاندين وضالين، مثل تصنيفهم أول البقرة ثلاثة: متقين وكافرين مصارحين وهم المعاندون وضالين وهم المنافقون، وإجمالهم في الفاتحة وتفصيلهم هنا من بديع الأساليب وهو دأب القرآن العظيم الإجمال ثم التفصيل»¹⁷.

ومن قبيل هذا التناسب ما هو قائم بين آخر سورة (الحج) وأول سورة (المؤمنون)، وذلك أنه -عز وجل- لما ذكر في آخر سورة (الحج): ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ (الحج: 77) فصل في افتتاح (المؤمنون) ما أجمل في آخر سابقتها «وأعلم بما ينبغي للراكم والساجد التزامه من الخشوع، ولالتحام الكلامين ما ورد الأول أمراً والثاني مدحة وتعريفاً بما به كمال الحال»¹⁸ إلى أن قال ما نصه «..وكما أن صدر هذه السورة مفسر لما أجمل في الآيات قبلها فكذا الآيات بعد مفصلة لمجمل ما تقدم في قوله تعالى ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة﴾ (الحج: 05) وهذا كاف في التحام السورتين»¹⁹.

ومن التناسب والاعتلاق بين السور ما يكون على أساس (اتحاد الموضوع) على نحو ما هو واقع بين سورتي (مريم) و(الشورى)، وقد بين الإمام العلاقة بينهما بالإشارة إلى التوافق في الابتداء بالتساوي في الحروف المقطعة، وفي الانتهاء من حيث أن من اختص بمصير الأمور كان المختص بالقدرة على إهلاك القرون، وكان مقصودها هو غاية المقصود من أختها سورة مريم، ويبين على نحو عجيب تعالق السورتين بقوله: «ولما توافقتا في المقصود وفي الابتداء والانهاء، واختصت الشورى بأن حروفها اثنان، دل سبحانه بذلك أرباب البصائر على أنه إشارة إلى أن الدين قسمان: أصول وفروع، دلت مريم على الأصول» ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه تمترون» (مريم: 34) و«وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم»، «هل تعلم له سميا» (مريم: 65) والشورى على مجموع الدين أصولا وفروعا «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك» الآية، هذا موافقة البداية، وأما موافقة النهاية فهو انهما ختمتا بكلمتين: أول كل منهما آخر الأخرى وآخر كل منهما أول الأخرى إيدانا بأن السورتين دائرة واحدة محيطة بالدين متصلة لا انفصام لها، وذلك أن آخر مريم أول الشورى وآخر الشورى أول مريم»²⁰.

ومن بديع التناسب والالتئام ما أشار إليه الإمام من أن بعض السور يجمع بينها (الاشتراك في قدم النزول)، وقد ذكر ذلك في أول تفسيره لسورة (الإسراء)، فبعد بيان مقصودها ألاح إلى أنها والكهف ومريم وطه والأنبياء تشترك في قدم النزول، فكان ذلك أدعى إلى جمعها في ترتيب متسق، وروى قول الإمام البخاري: «بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء إنهم من العتاق الأول، وهن من تلادي»²¹.

وقد يكون التناسب حاصلًا على أساس (التآخي في المطالع) كما هو الشأن في (أم الكتاب) و(الأنعام) و(الكهف) و(فاطر)، فكل واحدة من هذه السور مفتوحة بالحمد وهي إشارة إلى بدء ربع في القرآن كما ذهب جمع العلماء، وقد ذكر الإمام في بداية تفسير (فاطر) آخر السور المفتوحة بالحمد: «هي ختام السور المفتوحة باسم الحمد، التي تقدم عن الشيخ سعد الدين التفتازاني أنه فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة، وهي الإيجاد الأول، ثم الإبقاء الأول، ثم الإيجاد الثاني المشار إليه بسورة سبأ، ثم الإبقاء الثاني الذي هو أنهاها وأحكمها»²².

ومن التناسب الدلالي بين السور ما يكون على أساس (التتميم والتوضيح)، وأمثله جمّة في القرآن كحال سورتي (الزخرف) و(الدخان)، يقول الإمام في هذا الغرض: «لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه، وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآنا عربيا إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله «وإنه لذكر لك ولقوم وسوف تسئلون» (الزخرف: 44) وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، افتتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض، وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال تعالى: «إنا أنزلناه في ليلة مباركة»²³.

والتعليل هو الآخر من أوثق ضروب التناسب بين السورة وأختها، كما هو بين سورتي (ص) و(الزمر)، وذلك أنه لما بين التهديد في (ص) أن الله - سبحانه وتعالى - قادر على ما يريد، ثم ختم السورة بأن القرآن ذكر للعالمين ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾، كما أن كل ما فيه واقع لا محالة لكن من غير عجلة، فلما تبين ذلك كان ربما قال مُتَعَنِّتُهُمْ: ما له إذا كان قادرا لا يعجل ما يريده بعد حين؟، فكان تعليل ذلك بأنه كتاب منزل من لدن عزيز حكيم، وإنما هو على حسب الحكمة والتدرج لموافقة المصالح في أوقاتها، ولتيسير فهمه على ما له من العلو حتى صار ذكرا للعالمين قال تعالى في مطلع (الزمر): ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾²⁴.

ومن ألطف ضروب التناسب (التضاد) بين آخر السورة وبدء التي تليها كما هو الشأن بين سورتي (الفيل) و(قريش)، وذلك أنه سبحانه وتعالى لما فعل بأصحاب الفيل وجيشهم ومنعهم دخول الحرم الذي هو مظهر قدرته ومحل عظمتة الباهرة كرامة لقريش وحماية لهم عن أن تستباح ديارهم وتسبى ذرارهم لكونهم أولاد خليله وخدام بيته وقطان حرمه، لما كان كل ذلك، جاءت هذا السورة للدلالة على ضد ما دلت عليه الفيل بأن إهلاك الجاحدين المعاندين لإصلاح المقربين العابدين، وهو بشارة عظيمة لقريش خاصة لإظهار شرفهم في الدارين²⁵. وينقل قول ابن الزبير الغرناطي في بيان العلاقة بين السورتين: «لا خفاء في اتصالهما أي أنه سبحانه وتعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل ومنعهم عن بيته وحرمه لانتظام شمل قريش، وهم سكان الحرم وقطان بيت الله الحرام، وليؤلفهم بهاتين الرحلتين فيقيموا بمكة وتأمين ساحتهم»²⁶.

ومن التضاد كذلك ما بين سورتي (الماعون) و(الكوثر) فبعد أن تضمنت (الماعون) الإفصاح نهيا عن مساوئ الأخلاق، كانت بإفهامها داعية إلى معالي الشيم فجاءت (الكوثر) لذلك، وكانت الدين* قد ختمت بأبخل البخل وأدنى الخلائق: المنع تنفيرا من البخل ومما جره من التكذيب، فابتدأت (الكوثر) بأجود الجود. العطاء لأشرف الخلائق ترغيبا فيه وندبا إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون، فابتدأ بقوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ الذي هو من جملة الجود على المصدقين بيوم الدين²⁷.

ومن روائع اعتلاق السورة ومناسبتها لأختها ما يكون على أساس (الاستدلال) كالذي هو حاصل بين (المائدة) و(الأنعام)، وقد أشار الإمام في أول تفسير (الأنعام) إلى ذلك بقوله: «مقصودها الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية من التوحيد بأنه الحاوي لجميع الكمالات من الإيجاد والإعدام والقدرة على البعث وغيره، وأنسب الأشياء المذكورة فيها لهذا المقصد الأنعام، لأن الإذن فيها - كما يأتي - مسبب عما ثبت له من الفلق والتفرد بالخلق، وتضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها ديناً، لأنه لم يأذن فيه ولا أذن لأحد معه، لأنه المتوحد بالإلهية لا شريك له، وحصر المحرمات من المطاعم التي هي جلّها في هذا الدين وغيره، فدل ذلك على إحاطة علمه»²⁸.

ومن الاستدلال ما بين سورتي (النور) و(الفرقان) فبعد أن ختم سبحانه (النور) بسعة الملك وشمول العلم وتعظيم الرسول والتهديد لمن جاوز الحد، افتتح التي بعدها بمثل ذلك على وجه أنه برهان عليه فقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ إلى قوله: ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾²⁹.

ومن بديع المناسبات بين السور التي توصل إليها الإمام بحيث تجعل (الدائرة السورية) محكمة الاتصال ما بين مقطعيها ومطلعها ما أورده في تفسير آخر تسع سور من نص القرآن الكريم: قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس. وهذا الضرب البديع من المناسبة أسماه (التناظر) وقد بينه في آخر تفسير سورة (قريش) بعد أن فرغ من بيان اتصال آخرها بأولها كما عهدنا في قوله: «فقد التقى الطرفان والتأم البحران المغتفران، وكما التقى أول كل سورة مع أولها فكذلك القى آخر القرآن العظيم بأوله بالنسبة إلى تسع سور هذه أولها إذا عدت من الآخر إليها»³⁰، والأساس في التناظر هو اتفاق السورتين في المقصد، وعلى هذا فإن السور المناظرة للتسع المتقدمة هي: التوبة، الأنفال، الأعراف، الأنعام، المائدة، النساء، آل عمران، البقرة، الفاتحة.

ومن أمثال التناظر ما أورده الإمام في آخر تفسير سورة (الماعون): «وكما التقى آخرها بأولها التقت السورة كلها مع مناظرتها في العدد من أول القرآن وذلك أنه قد علم أن حاصل هذه السورة الإبعاد عن سفاسف الأخلاق وردمها ودنيها من التكذيب بالجزاء الذي هو حكمة الوجود المثمر للإعراض عن الوفاء بحق الخلائق وطاعة الخالق، والانجذاب مع النقائص إلى الاستهانة بالضعيف الذي لا يستهين به إلا أنذل الناس وأرذلهم، والرياء الذي لا يلم به إلا من كان في غاية الدناءة، فكان ذلك موجبا للميل إلى أعظم الويل، وفي ذلك أعظم مرغب في معالي الأخلاق التي هي أضداد ما ذكر في السورة وكلا الأمرين موجود في الأنفال المناظرة لها في ردّ المقطع على المطلع على أتم وجه»³¹. وقد قال في آخر سورة (الكافرون): «فصار آخرها أولها، ومفصلها موصولها، هذا هو الذي دل عليه السياق، وليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليجتاح إلى نسخ، ومن أعظم الدلائل إعجازها وجمعها للمعاني في إشارتها وإيجازها أن حاصلها قطع رجاء أهل الكفران من أن يقاربهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في أن يعدل بربه أحدا في زمن من الأزمان، وذلك من أعظم مقاصد المناظرة لها في رد الآخر على أول الأنعام لأنها السادسة في العد من الأول، كما أن هذه السادسة في العد من الآخر»³².

ويقر شيخنا أن التئام السور والتحامها يشهد حين تكتمل (الدائرة السورية) فتزداد المشاكلة بين رأسها، وهذا التشاكل العامل فيه هو اتحاد السور المتناظرات في أول القرآن وآخره في مقاصدها، يقول الإمام مبينا ذلك في آخر (الناس): «لما قرب التقاء نهاية الدائرة السورية آخرها بأولها ومفصلها بموصلها اشتد تشاكل الرأسين، فكانت هذه السور الثلاث الأخيرة مشاكلة للثلاث الأولى في المقاصد،

وكثرة الفضائل والفوائد: الإخلاص بسورة التوحيد آل عمران، وهو واحد، والفلق للبقرة طباقا ووفاقا...، والناس للفاتحة»³³

ومن لطيف المناسبات بين السور ما بين (أم الكتاب) و(الناس) وقد ذكر الإمام العلاقة بينهما، فكانت (الفاتحة) بمنزلة (براعة الاستهلال) وسورة (الناس) بمثابة (براعة الختام)، ويبين البقاعي هذا في قول جامع هذا نصه: «ومقصود هذه السورة معلول لمقصود الفاتحة الذي هو المراقبة، وهي شاملة لجميع علوم القرآن التي هي مصادقة الله ومعاداة الشيطان ببراعة الختام وفذلكة النظام، كما أن الفاتحة شاملة لذلك لأنها براعة الاستهلال»³⁴، وبهذا يصدق قول من وصف النص القرآني في حسن اتساقه والتئام أجزائه وبعده عن التنابد والتنافر بأنه كالكلمة الواحدة.

3. الخاتمة:

لقد فهم البقاعي موضوع الوحدة فهما دفعه إلى النظر إلى نص السورة نظر من يدرك أنها وحدة واحدة مترابطة الأجزاء متماسكة المعاني على اختلاف موضوعاتها، وذلك ما كان يثبته في تفسير آخر كل سورة مشيرا إلى الوحدة بمصطلحات متوافقة عديدة منها: ردّ المقطع على المطلع، الالتحام، التعانق، الالتئام، الالتفاف، الانطباق، الانعطاف، الاعتلاق، الاتصال، الانتظام، التقاء الطرفين، رجوع ختام السورة على فاتحتها، موافقة المقطع للمطلع.. الخ. وقد قاد ذلك الفهم شيخنا إلى الإبانة عن العلاقات الدلالية بين الآيات، ولم يغفل على إيضاح ما بين السور القرآنية من روابط كونها في مستوى ثانٍ بعد آيات الذكر الحكيم على ما يقتضيه تراتب الأجزاء فيه، ومن يطلع على عمله يُدرك النهج السليم الذي نهجه في تفسيره، وأنه وضع أسسا واضحة المعالم لا لبس فيها ولا اختلاف، وكان في كثير من المواضع موفقا -بفضل الله- في بيان تناسب النص القرآني على نحو يؤكد أنه كان يتصور ذلك النص موضوعات خطابية مرتبطة بطريقة مقصودة، وذلك بعد النظر إلى جماع السورة وما سيقته له من غرض، وما يقتضيه ذلك الغرض من مقدمات كما قرره في (قانون المناسبة) في مقدمة تفسير (أم القرآن)، على أنه من فرائض القول إن ذلك الموضوع افتقر إلى البسط وخلي من الشرح المفصل لقواعد ذلك القانون، وإن كان هذا القصور لم يُرله أثر في المحاولات التطبيقية التي قدّمها الشيخ في تفسيره.

كما بحث الإمام في العلاقات المؤسّسة للترتيب على مستوى النص القرآني؛ إذ إن الدائرة السورية تتصل فيها الأجزاء ويدفع كل جزء منها باتجاه الذي يليه، والنظر إلى ما قدّمه الإمام في إمكانه أن يحصي تلك العلاقات التناسبية بين السور القرآنية من أول النص القرآني حتى آخره، ومن أشهرها: براعة الاستهلال، الإجمال والتفصيل، الاتحاد في الموضوع، الاشتراك في قدم النزول، التعليل، الاستئناف، التضاد، التتميم، التناظر.. وغيرها.

4. الهوامش:

- ¹ - الفيرزبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (1997) القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، مج1، ص131.
- ² - الزركشي، بدر الدين، (2009) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج1، ص62.
- ³ - البقاعي، برهان الدين، (1995)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج1، ص5.
- ⁴ - السيوطي، جلال الدين، (2008)، إلتقان في علوم القرآن تعليق: مصطفى الشيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ص273.
- ⁵ - مسلم، مصطفى، (1989) مباحث في التفسير الموضوعي، دار العلم، دمشق، سوريا، ص58.
- ⁶ - المصدر نفسه: ج5، ص645.
- ⁷ - المصدر نفسه: ج2، ص44.
- ⁸ - أبو خرمة، عمر، (2004)، نحو النص، نقد نظرية وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ص184.
- ⁹ - ينظر: البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر، ج4، ص149.
- ¹⁰ - ينظر: المصدر نفسه: ج4، ص124.
- ¹¹ - المصدر نفسه: ج3، ص08.
- ¹² - المصدر نفسه: ج3، ص33.
- ¹³ - المصدر نفسه: ج7، ص197.
- ¹⁴ - المصدر نفسه: ج1، ص62.
- ¹⁵ - الشاطبي، أبو إسحاق: (1997) الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج4، ص85.
- ¹⁶ - البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر، ج1، ص32.
- ¹⁷ - المصدر نفسه: ج1، ص40.
- ¹⁸ - المصدر نفسه: ج5، ص186.
- ¹⁹ - المصدر نفسه: ج5، ص186.
- ²⁰ - المصدر السابق: ج6، ص594.
- ²¹ - ينظر: المصدر نفسه: ج4، ص327. والحديث أخرجه البخاري 4994 و4739 عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا.
- ²² - المصدر نفسه: ج6، ص199.
- ²³ - المصدر نفسه: ج7، ص63.
- ²⁴ - المصدر نفسه: ج6، ص412.
- ²⁵ - المصدر نفسه: ج8، ص534.
- ²⁶ - المصدر نفسه: ج8، ص535.
- ²⁷ - المصدر نفسه: ج8، ص547.

²⁸- المصدر نفسه: ج2، ص578.

²⁹- المصدر نفسه: ج5، ص291.

³⁰- المصدر نفسه: ج8، ص537.

³¹- المصدر نفسه: ج8، ص545.

³²- المصدر نفسه: ج8، ص557.

³³- المصدر نفسه: ج8، ص619.

³⁴- المصدر نفسه: ج8، ص611.